

الخطاب التفسيري واستراتيجية الفهم منه انتخاب اللفظ إلى إنتاج المعنى

د. خديجة عنيشل
جامعة قاصدي مرباح ورقلة

مهاده لغوي:

هيا الله سبحانه وتعالى أمة العرب لتكون حاضنة كتابه الكريم، الذي اصطفى له من بين كل الألسن اللسان العربي المين؛ فالقرآن نزل بلسان أبان المعاني السماوية بالفاظ أعجزت العرب والعجم على أن يأتوا بمثلها، بل وأعجزهم القرآن على مر الزمان أن يزيحوا لفظاً ويضعوا مكانه لفظاً آخر، بالرغم أن النص القرآني سار على مذهب العرب في كلامها، فما من لفظة إلا وتحمل في أحشائها المعنى العربي الذي أنتجته البيئة العربية وتواطأ عليه العرب مذ نشأت لغتهم.

إن اختيار العربية لساناً للمعاني السماوية كان في حد ذاته إرادة إلهية لتشكيل العالم من جديد، وبناء وعي مختلف يقوم على التوحيد. ولذلك فإن أبرز ما يواجه متلقي الخطاب القرآني هو تلك الأسئلة الجوهرية حول سر اصطفاء القرآن لألفاظه، وإمكانية قراءة الخطاب القرآني وفق منهج تدبري يقوم على قراءة اللفظ انطلاقاً من مقعده المعجمي، وتموضعه ضمن شبكة المقول العربي الأصيل. وبصيغة السؤال: هل يمكن قراءة النص القرآني في ضوء منهج لغوي ينطلق من وضع اللفظ ضمن إطاره المعجمي الاشتقاقي أولاً، ومنه إلى الإطار السياقي؟ وهل الدلالات الكامنة خلف اللفظ القرآني والتي تُستمد بالأساس من البنيات الاشتقاقية له تقدم جماليات بلاغية ما؟

مخزون لفظي أصيل للعرب، حيث جمعت وصُنفت في زمن النقاء اللغوي، وضمّت كما هائلاً من المقول العربي الأصيل، الذي تلفظ به العرب زمنَ سليقتهم وفطرتهم.

مفهوم التدبر في القرآن الكريم:

إن المعنى في الخطاب القرآني يتميزُ بخصيصةٍ مهمة، تحقق للنص القرآني كله بُعدَهُ اللانهائي، وتجعل القرآن الكريم لا يخلق من كثرة الرد. هذه الخصيصة هي الانفتاح انفتاح المعنى.

ولأجل هذه الميزة، أسس النصُّ القرآني منذ نزوله لمفهوم "القراءة"، باعتبارها فعلٌ التلقي الأول ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ العلق: 1. ولم يكتف بذلك فقط، بل ربط القراءة بمسألة تضاهيها خطورة ألا وهي "التدبر"؛ إذ جعل التدبر والتذكر هدفاً وغايةً لنزول القرآن، قال تعالى ﴿ليدبروا آياته﴾ ولعل هذه الخطورة التي يكتسيها مفهوم التدبر للنص القرآني، وعلاقة ذلك بفهم آلية عمل الكلمة في الخطاب القرآني، تجعل من الحتم أن نفهم جوهر التدبر ومعناه، انطلاقاً من حضور المصطلح داخل الآيات التي ورد فيها وهي أربع آيات في القرآن الكريم:

- ﴿ولو رده إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ النساء: 82

- ﴿أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يات آباءهم الأولين﴾ المؤمنون: 68

- ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾ ص: 29

- ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ محمد: 24

إن المتأمل في حضور المصطلح داخل الآيات، يرى أن التدبر يرتبط بالنص (القرآن/القول/الكتاب)؛ أي يرتبط بكلام الله تعالى، وهذا يقوي

الحُجَّةَ في أن التدبر سلوكٌ لغويٌّ واجبٌ الحدوث لمن توفرت فيه أسبابُ النظر والتبين، لأنه يمثلُ في المنظور القرآني واحداً من إجراءات المنهج الرباني، الذي ارتضاه الله تعالى للناس كي يتقبلوا من مستوى الشك إلى مستوى اليقين، والفهم الصحيح.

القرآن لم يأمر بالتدبر فحسب، بل عاتب في سياق توبيخي الذين يتلقون النص ولا يتدبرونه ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ قال أبو حيان في تفسيره: "وهذا استفهام معناه الإنكار أي: أفلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي ولا يعرضون عنه، فإنه في تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره ولا يظهر ذلك لمن أعرض عنه ولم يتأمله"¹

لقد عادل القرآن بين عدم التدبر وانغلاق القلب؛ لأن طريق النص إلى القلب هو التدبر، الذي يعني الوصول إلى ما وراء الخطاب لمعرفة أسراره، فكشفُ خبايا القول لا يتأتى إلا بهتك حُجُب النص، واحداً تلو الآخر، وكلما غُصنا في النص القرآني أكثر، كلما منحنا فهماً أعمق؛ يقول ابن عاشور في تفسيره: "والتدبر: التفكير والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنما يكون ذلك في كلامٍ قليلٍ اللفظ، كثير المعاني التي أودعت فيه، بحيث كلما ازداد المتدبرُ تدبراً انكشفت له معانٍ لم تكن بادية له باديء النظر"²

1 أبو حيان النحوي الأندلسي - محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان - (ت: 745هـ)، البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، 1422هـ/ 2001م، ج: 3، ص: 317

2 ابن عاشور - محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي - (ت: 1393هـ)، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط: 1، 1420هـ/ 2000م، ج: 23، ص: 148

ولهذا كان القرآن حريصاً على حضٍّ متبعيه أن يتدبروه ويحرفوه، حتى تتبين لهم معانيه وتنكشف أسرارُه، فقد أثار عن ابن عباس قوله: "أحرثوا هذا القرآن" ¹ وهي دعوة صريحة لضرورة فهم القرآن عن طريق تثويره؛ وذلك بالتأمل في آيه، وتدبر ألفاظه، وفهم معانيه. وليس التدبر سوى الرجوع إلى ما وراء اللفظ، وإلى جذور الكلم المفرد، وهذا المعنى يحملُه جذر كلمة (التدبر)؛ جاء في مقاييس اللغة لابن فارس: "الدَّالُّ وَالْبَاءُ وَالرَّاءُ. أَصْلُ هَذَا الْبَابِ أَنْ جُلَّةً فِي قِيَاسٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ آخِرُ الشَّيْءِ وَخَلْفُهُ خِلَافٌ قُبْلَهُ" ²

قال الفيروزبادي: "والتدبير: النظر في عاقبة الأمر، أي إلى ما يوئل إليه عاقبته (كالتدبر). وقيل: التدبر التفكير أي تحصيل المعرفتين لتحصيل معرفة ثالثة، ويُقال عرف الأمر تدبراً، أي بأخره. قال جرير ³:

وَلَا تَتَّقُونَ الشَّرَّ حَتَّى يُصَيِّكُمْ وَلَا تَعْرِفُونَ الْأَمْرَ إِلَّا تَدْبِرًا" ⁴

جاء في العين: "واستدبر من أمره ما لم يكن استقبل، أي نظر فيه مُستديراً فعرف ما عاقبه ما لم يعرف من صدره" ¹

¹ ابن الأثير - أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، (ت: 606 هـ)، النهاية في غريب الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، 1399هـ/1979م، ج:1، ص: 927،

² ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1، 1420هـ/1999م، مادة (دبر)

³ جرير - ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق: د نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، مصر، ط:3، ج:1، ص: 479

⁴ الفيروزبادي - مجد الدين محمد بن يعقوب - (ت: 817هـ)، القاموس المحيط، تحقيق: الشيخ أبو الوفا نصر الحوريني المصري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:2، 1428هـ/2007م، مادة (دبر)

في المعنى الذي يكون منه فساد الكلام وإما زهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها مترادفة متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب والأمر فيها وفي ترتيبها عند العلماء بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة خاصية تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها، وإن كانتا تشتركان في بعضها"¹.

والخصيصة الإعجازية للغة القرآنية هي التي تجعل من هذه اللغة الاستثناء مفتوحة-مكتملة في آن معاً، خلافاً للغة الإنسانية التي "تظل باستمرار قاصرة عن الاتحاد النهائي بماهية الأشياء والإنسان، ويظل يتبعها كظلها حاجزٌ من عدم الدقة النهائية أو عدم الاكتمال باعتبار تبعيتها للإنسان والطبيعة، وباعتبار انفصالها أيضاً عنهما انفصلاً لا يمكن إلغاؤه، وإنما يمكن تقليل مساحته أو توسيعها طبقاً لطبيعة التطور في موازاة تطور اللغة ومواكبتها لحجم التغيرات الحاصلة في الحياة، وهنا تبدو الإشكالية لغوية أو إيديولوجية بحكم اللغة، أو بحكم تبني لفهم ما أو لموقف ما من المواقف الاجتماعية أو الفكرية"².

ونحن بإزاء النص القرآني يحق لنا أن نتساءل: هل راعى الخطاب السماوي شروط المتلقي الأرضي؟ وأولى هذه الشروط مراعاة استعمال

¹ الخطابي - أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم - (ت: 388هـ)، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط: 3، ص: 29.

² عبد الهادي عبد الرحمن، سلطة النص قراءات في توظيف النص الديني، دار سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربي، القاهرة بيروت لندن، ط: 1، 1998م، ص: 342-343.

الكلمة التي نُظِمَ بها هذا الخطاب باعتبارٍ داخليٍّ هو كونه نصاً لغوياً بالأساس، وباعتبارٍ خارجيٍّ كون اللغة العربية أقدر اللغات على البيان وإلا ما كان الله ليصطفيها دون غيرها كي تكون لسانه الذي نزل به إلى الأرض، وفي هذا يقول الشافعي: " فلما خصَّ سبحانه وتعالى اللسان العربيَّ بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقفةً دونه"¹

إننا نلاحظ في المجالات الاصطلاحية أن الكلمات تكون مجبورةً على أن تأخذ معاني ثابتة متواطاً عليها، أما في النص السماوي فالكلمة ذاتها تدفعنا للتساؤل عن السر الكامن في جذرها اللغوي، وشبكة المعاني التي تتعلق معها.

إن القيمة الإعجازية للنص القرآني إنما تُردُّ إلى ألفاظه التي تختزنُ المعاني الإلهية، وتعبّر بالضرورة عن فهم المجتمع العربي الجاهلي للوجود، هذا المجتمع الذي اصطفاه الله تعالى من بين سائر شعوب الأرض ليكون محطَّ معجزته ومهبط وحيه، فجاءت كلُّ كلمةٍ في القرآن قاصدةً دالِّها ومدلوها في آنٍ معاً، وبشكلٍ تتمايز فيه كل كلمةٍ عما يمكن أن تكون مرادفةً لها في المعنى، وفي هذا السياق يقول الجاحظ: " قد يستخف الناسُ ألفاظاً ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوعَ إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر والناس لا يذكرون السَّعْبَ ويذكرون (الجوع) في موضع القدرة والسلامة، وكذلك ذكر (المطر) لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام،

¹ الشافعي - محمد بن إدريس - (ت: 204هـ)، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد

شاكر، دار التراث، بيروت، لبنان، ط: 2، 1399هـ، ص: 14

والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكرَ الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل (الأرضين)، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر، وأولى بالاستعمال" ¹

والجاحظ يمثل هنا اتجاهاً أصيلاً في البحث البلاغي عند العرب، الاتجاه الذي يقوم على الذائقة البلاغية، والحس اللغوي الرصين؛ الذي لا يمتلك ناصيته إلا من اقتدر على هذه اللغة المعجزة وخبر أسرارها المكينة، وربط الصلة بينه وبين النص القرآني الذي نزل من فوق سبع سماوات بلسان عربي مبين؛ فلغة القرآن الكريم بالفعل لم تستعمل لفظ (الجوع) فضلاً عن معناه الشائع الذي هو عذابٌ خواء البطن، إلا في سياق الحديث عن العذاب والعقاب المسلط من رب السماء على أهل الأرض:

- ﴿وَضْرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مَطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمَ اللَّهُ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ النحل: 112

- ﴿وَلْيَلْبَسُوكُمْ بِشْيَءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ...﴾ البقرة: 155

ولغة القرآن أيضاً وظفت لفظ المطر في سياق العذاب والبؤس، ولم يكن من معانيه معنى الخير العميم والغيث النازل من السماء كما درجت عليه لغة العامة:

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج: 1، ص: 20

- ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ الفرقان: 40

- ﴿ وأمطرنا عليهم مطرا. فساء مطر المنذرين ﴾ الشعراء: 173

- ﴿ وأمطرنا عليهم مطرا. فساء مطر المنذرين ﴾ النمل: 58

- ﴿ وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ الأعراف: 84

- ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ هود: 82

- ﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴾ الحجر: 74

ثالذي نلمسه في هذا الانتقاء العجيب وهذا التخصيص الغريب هو مواءمة النص القرآني لفكر الإنسان العربي؛ الذي قال قبل نزول القرآن: "مَطَرَ الرَّجُلُ فِي الْأَرْضِ مُطَوْرًا، أَي ذَهَب، وَتَمَطَّرَ مِثْلَهُ، وَيُقَالُ: ذَهَبَ الْبَعِيرُ فَلَا أُدْرِي مِنْ مَطَرٍ بِهِ" ¹ وقال ابن عباد: "ذَهَبَ فَلَا أُدْرِي مَنْ مَطَرٍ بِهِ: أَي ذَهَبَ بِهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: مَطَرَ فِي الْأَرْضِ مُطَوْرًا: أَي ذَهَبَ، وَالْمَطَرُ: الْعَدُوُّ الشَّدِيدُ، وَمَطَرَ قَرَبَتَهُ: مَلَأَهَا، وَالْمَطْرِيرُ مِنَ النِّسَاءِ: السَّلِيطَةُ؛ لِمَطَرَاتِهَا لِلشَّرِّ: أَي سُرْعَتِهَا، وَجَمَعَهَا مَطَارِيرٌ" ² والمطر في عرف العرب هو الماء ينسكب من السماء؛ لم يقصد به الغيث الذي يُنبِتُ الكَلأَ، بدليل أن فعل أمطر عند العرب لا بد فيه من تخصيص الخير ليدلَّ على إصابة الخير،

¹ الجوهري- إسماعيل بن حماد- (ت: 393هـ)، الصحاح تاج اللغة و صحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط: 2،

1399هـ/ 1979م، مادة (مطر)

² ابن عباد، المحيط في اللغة، مادة (مطر)

تقول العرب: "مَطْرَني بخير: أصابني، وما مُطِرَ منه خيراً وبخير، أي: ما أصابه منه خير"¹.

والقرآنُ كلامُ الله تعالى لم يخرج على سمتِ العرب في كلامها، ولم يجترأ على سننِ العربية؛ بل نزل من السماء بلسانِ عربيٍّ يتبينه كلُّ أبناء جزيرة العرب، وكان العربيُّ في نهجِ كلامه يتجُّ مفرداته وفق تصوره للوجود، وبناءً على رؤيته للعالم من حوله، والعجيبُ أنه كان يمتلك مقدرةً انتقائيةً تفصيليةً لوضع دوالٍ لغته إزاء مدلولاتها ففي فعل السحاب والمطر مثلاً تقول العرب: "إذا أتت السماء بالمطر الخفيف قيل حَفَشَتْ وَحَشَكَت، فإذا استمر مطرها قيل: هطلت وهتنت، فإذا صبت الماء قيل: همعت وهضبت فإذا ارتفع صوت المطر قيل: اهطلت واستعلت، فإذا سال المطر بكثرة: قيل انسكب وانبعق، فإذا سال وركب بعضه بعضاً قيل: ائعجَرَ وائعَجَجَ، فإذا دام أياماً لا يقلع، قيل: ائجَمَ، وأغبطَ، وأدجنَ، فإذا أقلع، قيل: ائجمَ، وأفصى"².

ويستغربُ الباحثُ في آلية الاستعمال اللغوي العربي الذي يتبدى فيه سمتُ العرب المميز وطريقة كلامها؛ حدثنا عن ذلك الجاحظ قائلاً: "ونراهم يسمون الرجل جملاً ولا يسمونه بعيراً ولا يسمون المرأة ناقة، ويسمون الرجل ثوراً ولا يسمون المرأة بقرة ويسمون الرجل حماراً ولا يسمون المرأة أتاناً، ويسمون المرأة نعجة ولا يسمونها شاة ولا يضعون

¹ الفيروزبادي، القاموس المحيط، مادة (مطر)

² الثعالبي - أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل - (ت: 429هـ)، فقه اللغة، تحقيق: د جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422هـ -

نعجة اسماً مقطوعاً، ويجعلون ذلك علامة مثل زيد وعمرو، ويسمون المرأة عنزا"¹، وقد جرى الخطابُ القرآني هذا السنن واقتضى أثره ولم يشأ أن يخرج عنه وكان اللفظُ أساس هذه المجازة ومبدؤها إذ امتاز كما يرى الجاحظ " بكثير من الخصائص البلاغية الممتازة، فأول ذلك حسن انتقاء اللفظ، واستعمال ما هو أحق بالمعنى، وأولى بالاستعمال، فقد يشترك لفظان في معنى واحد ولكن أحدهما أدقُّ من الآخر في الدلالة وأدخلُ في المعنى وأقدر على التعبير عنه من اللفظ الآخر، وقد تغيبُ هذه الفروق الدقيقة بين الألفاظ المترادفة عن العامة وأكثر الخاصة، ولكن القرآن لا يتقيد بذلك، ولا يمكن أن تغيب عنه هذه الفروق"²

وهنا يكمن سرٌّ عظيمٌ من أسرار إعجازية العربية، وهو كونها وحيٌّ من السماء وهبةٌ من الله لأمة العرب، وإلا فما سببُ اصطفاؤها من بين سائر الألسن لتكون لسان رب العالمين ورسالته هداية الناس أجمعين؟؟ ولنا في هذا الموقف شاهدٌ مهم وهو رأي واحدٍ من أنبغ اللغويين الذين أرسوا لمعالم الدرس اللغوي العربي القديم، وهو ابن جني الذي يقول في الخصائص: "واعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضوع. فأجد الدواعي والخوارج قوية التجاذب لي، مختلفةً جهات التغول على فكري. وذلك أنني إذا تأملتُ حالَ هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاق والرقّة ما يملك على جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر، فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ومنه ما حدوته على أمثلتهم... وانضاف إلى ذلك واردُ الأخبار المأثورة

¹ الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ج:1، ص: 212

² د. وليد قصاب، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن

السادس، دار الثقافة، الدوحة، 1405هـ/1985م، ص: 73

بأنها من عند الله جل وعز فقوي في نفسي اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه وأنها وحي " ¹.

وإن كان هذا تبريراً شخصياً لمسألة التوقيف والتواضع التي أسهب في بحثها الدارسون العرب منذ نشأة الدرس اللغوي العربي القديم، فلا شك أيضاً أن اللغة العربية تمتاز بخاصية عجيبة في مواعمة الدوال بمدلولاتها، وهذا ليس محض انتصارٍ لقضية لغوية، بل هو تعليلٌ يعضده علم الاجتماع اللغوي؛ إذ يرى علماء الاجتماع " أن اللغة تجعل من الأمة الناطقة بها كلا متراسماً يخضع لقانون واحدٍ وأنها الرابطة الحقيقية الوحيدة بين عالم الأذهان وعالم الأبدان، وهي نظريةٌ تصدقُ على لغتنا العربية، كما يقول الدكتور عثمان أمين أكثر مما تصدقُ على أية لغةٍ أخرى، فاللغة العربية عظيمة الأثر في تكوين عقليتنا، وهداية سلوكنا، وتصريف أفعالنا، ذلك أنها تمتاز على اللغات الأخرى بمثالية عميقة صريحة، تحسبُ حساب الفكرة والمثال وتضعهما موضع الصدارة والاعتبار.. أي أن لغتنا العربية تفترض دائماً أن شهادة الفكر أصدق من شهادة الحس ويكفي في التعبير بها إنشاء علاقة ذهنية بين المسند والمسند إليه، دون حاجة إلى فعل الكينونة الذي هو لازمة ضرورية في اللغات الهندو-أوروبية ودون الحاجة إلى التصريح بضمير المتكلم أو المخاطب أو الغائب، لأن الذات متصلة دائماً بالفعل في نفس تركيبه الأصلي " ².

¹ ابن جني، الخصائص، تحقيق: د عبد الحميد الهنداوي، ج:1، ص: 99

² أحمد محمد جمال، اللغة العربية لساناً وكيان، مجلة البحوث الإسلامية،

الإصدار من رجب إلى رمضان، 1395هـ، العدد:1، ص: 92

ليس هذا فحسب بل إن العربية شكلت على مر الزمان اللغة المثالية للمجتمع المسلم؛ التي يرجع إليها أفرادها حين يتغنون فهم الآي المقدس، ويرومون إدراك الدلالات العقدية باختلاف مضامينها، لذلك كان ملجأ المفسرين الوحيد هو لغة العرب، وكان حبر الإسلام ابن عباس يقول: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن، الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه" ¹، وقال أيضا: "إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب" ².

وليس دقيقاً ما ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن حين قال: "إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، وتصدّق ذلك في آية من القرآن، وفي آية أخرى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم...﴾ إبراهيم:4، فلم يُنتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعمّا فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص، وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب والمعاني" ³، وكذلك مقولة ابن خلدون من "إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم،

¹ السيوطي - الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر - (ت:911هـ)، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية، دط، ج:1، ص: 847

² نفسه، ص: 847-848

³ أبو عبيدة - معمر بن المثنى التيمي - (ت:210هـ)، مجاز القرآن، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج:1، ص:8

فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه" ¹، فالمصادر اللغوية تذكر أن من الصحابة من أشكل عليه فهم بعض مفردات القرآن، وأنهم لم يكونوا جميعهم بنفس درجة الفهم لكلمات النص القرآني، فمنهم من كان متمكناً من لغته محيطاً بغريبها ومنهم من كان لا يمكنه ذلك، وهو أمر طبيعي، لأن اللغة لا يحيطُ بها شخصٌ مهما كانت مقدرته فائقةً وإمكاناته العقلية واسعة، فضلاً على أن فهم القرآن "لا يتوقف على معرفة اللغة وحدها، بل لا بد لمن يفتش عن المعاني ويبحث عنها من أن تكون له موهبة عقلية خاصة، تتناسب مع درجة الكتاب وقوة تأليفه" ².

والقرآنُ حين نزل لم يغير شيئاً من لغة العرب، ولم يعتمد إلى الألفاظ فغيرها، وإن كانت بعض الألفاظ تحولت دلالاتها ولبست معانٍ جديدة، يقول عبد القاهر الجرجاني: "إن التنزيل كما لم يقلب اللغة في أوضاعها المفردة عن أصولها ولم يُخرج الألفاظ عن دلالتها، وأن شيئاً من ذلك إن زيد إليه ما لم يكن قبل الشرع يدل عليه، أو ضمَّن ما لم يتضمنه أتبع بيانٍ من عند النبي، وذلك كميانه للصلاة والحج والزكاة والصوم، كذلك لم يقض بتبديل عادات أهلها ولم ينقلهم عن أساليبهم وطرقهم، ولم يمنعهم ما يتعارفونه من التشبيه والتمثيل والحذف والاتساع" ³.

¹ ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشداوي، نشرت بدعم وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي، الدار البيضاء، المغرب، ط:1، 2005م، ج:5، ص:196

² د محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، مصر، دط، دت، ج:1، ص:29

³ الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: هنري ريتز، مطبعة وزارة الأوقاف، استنبول، 1954م،

ولما كان نزول القرآن بلسان العرب ووفق سنتهم كان لا بد من الرجوع إلى لغة المجتمع العربي آنئذٍ، كي نفهم نصوصه ونعقل ألفاظه، قال الشاطبي: "فإن قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب وأنه عربيٌّ، وأنه لا عجمة فيه فبمعنى أنه أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها... فإذا كان كذلك فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب فكما أن لسان الأعاجم لا يمكن أن يفهم من جهة لسان العرب، فكذلك لا يمكن أن يفهم لسان العرب من جهة لسان العجم لاختلاف الأوضاع والأساليب" ¹.

يساعدُ المنهج اللفظي التدبري في فهم الخطابات الأكثر خصوصية وبخاصة تلك التي يعمد فيها القرآن إلى التكنية بوساطة الكلمات؛ ويعجبُ المتلقي للنص القرآني كيف يرسمُ القرآن ملامح العلاقة الجنسية مثلاً باللفظ وحده حتى لا يدع مجالاً لتقصٍ يترأى في ثنايا الخطاب، وهو خطابٌ حساسٌ يلامسُ المشاعرَ الخاصة والحميمية بين الزوجين، فيعمد النصُّ الإلهي إلى التورية والكناية لأن المباشرة هنا خدشٌ للحياء، ولأنَّ موضوعَ الجنس لما كان محبوباً ينشأ تحت اللُحْفِ، ويستمدُّ وَهَجَهُ من هذا الحياء، كان الأنسبُ لصوغه الكناية والاستعارة.. وسنمثلُ لذلك بلفظٍ واحدٍ لضيق الوقت وهو لفظ الإفضاء

لفظُ الإفضاء:

نعتَ القرآنُ العمليةَ الجنسيةَ بين الزوجين بلفظٍ مميزٍ آخر هو "الإفضاء" قال تعالى: ﴿... وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ النساء: 21

¹ الشاطبي - أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي - (ت: 790هـ)، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: الشيخ عبد الله دراز، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ج: 2، ص: 103

ولفظ الإفضاء بالتأكيد ليس هو المباشرة ولا التغطي ولا الرفث، هو لفظٌ مخصوص اصطفاؤه النصُّ القرآنيُّ في هذا الموضع بالذات لأنه أجدر من سائر الألفاظ الأخرى بهذا الموقع؛ فسياق الآية ينكر إنكاراً شديداً رجوع الزوج عن المهر الذي قدمه لزوجته في حال استبدالها بزوج أخرى، وعلل ذلك بعلّة "الإفضاء" لعظيم هذه العلاقة وخطورة معناها؛ يقول أبو حيان في تفسيره: "وهذا الاستفهام على سبيل الإنكار، أي: أتفعلون هذا مع ظهور قبحة؟ وسمي بهتانا لأنهم كانوا إذا أرادوا تطليق امرأة رموها بفاحشة حتى تخاف وتفتدي منه مهرها، فجاءت الآية على الأمر الغالب. وقيل: سمي بهتانا لأنه كان فرض لها المهر واسترداده يدل على أنه يقول: لم أفرضه، وهذا بهتان. وانتصب بهتانا وإثماً على أنهما مصدران في موضع الحال من الفاعل، التقدير: باهتين وأثمين. أو من المفعول التقدير: مبهتاً محيراً لشنئته وقبح الأحدثونه، أو مفعولين من أجلهما أي: أتأخذونه لبهتانكم وإثمكم؟ وهذا استفهام إنكار أيضاً، أنكر أولاً الأخذ، ونبه على امتناع الأخذ بكونه بهتانا وإثماً. وأنكر ثانياً حاله الأخذ، وأنها ليست مما يمكن أن يجامع حال الإفضاء، لأن الإفضاء وهو المباشرة والدنو الذي ما بعده دنو يقتضي أن لا يؤخذ معه شيء مما أعطاه الزوج، ثم عطف على الإفضاء أخذ النساء الميثاق الغليظ من الأزواج" ¹

ينطوي لفظ الإفضاء على دلالاتٍ مميزة تتواءم مع السياق الذي ورد فيه ومن ضمنها:

1- دلالة الزواج الموصل للجماع:

الإفضاء هو وصول الرجل إلى المرأة التي اختارها له القدر لتكون شريكة حياته، وحين تصير المرأة زوجاً لبعليها فإنها تتقل من حيز الأبوة إلى حيز

¹ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج:3، ص:215-216

الزوجية، وتتحول من فضاء الأسرة إلى فضاء أرحب هو فضاء الزوج فتصيرُ في حوزته، جاء في التهذيب: "أفضى فلانٌ إلى فلان: إذا وصل إليه؛ وأصله أنه صار في فرجته وفضائه"¹

والإفضاء هو الجماعُ ووطأ الرجل زوجته؛ جاء في تفسير القرطبي: "قال ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم: الإفضاء في هذه الآية الجماع. قال ابن عباس: ولكن الله كريم يكنى. وأصل الإفضاء في اللغة المخالطة؛ ويقال للشيء المختلط: فضا. قال الشاعر:

فقلت لها يا عمتي لك ناقتي وتمر فضا في عييتي وزيب"²

وهذا المعنى تصدّقه المعاجم أيضا يقول الأزهري في التهذيب: "أفضى الرجل: دخل على أهله، قال: وأفضى أيضا: إذا جامعها.. ويقال: أفضى الرجل جاريته: جامعها فصير مسلّكها مسلكا واحداً، وهي المفضاة من النساء"³

2- دلالة اللمس:

أولُ الجماع اللمس. ويلتقي لفظ الإفضاء في هذا المعنى بهذه الدلالة التي تعبر في النص القرآني على الوطء كما قال تعالى: ﴿...أولامستم النساء..﴾ المائدة: 6، وآلة اللمس هي اليد: اليدُ الحانيةُ، اليدُ الذكيّةُ، اليدُ التي تعرفُ من أين يؤتى الجسدُ ومن أين تتحققُ المتعةُ، وبالطبع فالخطاب القرآني لا يفصلُ في هذه المسائل التي يصنعها الفراش، ولكنه مرةً أخرى يستخدمُ اللفظَ الدالَّ

1 الأزهري، تهذيب اللغة، مادة (فضا)

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: 5، ص: 102

3 الأزهري، تهذيب اللغة، مادة (فضا)

على ذلك ببراعة، تقول العرب: "أفضى الساجدُ بيده إلى الأرض إذا مسها بباطن كفه"¹ واللمسُ قد يفضي إلى الجماع وقد لا يفضي، ولكنه لا يكون إلا في خلوة؛ يقول الفيروزابادي: "أفضى المرأة: جعلَ مسكئها واحداً فهي مُفضاةٌ وإليها: جامعها أو خلا بها جامع أم لا"² وفي المقاميس: "أفضى الرجلُ إلى امرأته: باشرها. والمعنى فيه عندنا أنه شبهَ مقدّم جسمه بفضاء، ومقدّم جسمها بفضاء، فكأنه لاقى فضاءها بفضائه"³

والقرآنُ يصرُّ على التكنية في مثل هذه المواضيع الحساسة، فلا يعتمد على القول أن الرجل والمرأة يكونان في خلوة بعيداً عن أعين الناس، ويدخلان في لحافٍ واحد ويمارسان الجنس بكل تفصيلاته، وإنما يوظف لفظ الإفضاء دون غيره من الألفاظ للدلالة على كل ذلك وهذا ما تقره التفاسير؛ يقول الرازي: "والقول الثاني: في الإفضاء أن يخلو بها وإن لم يجامعها، قال الكلبي: الإفضاء أن يكون معها في لحاف واحد، جامعها أو لم يجامعها، وهذا القول اختيار الفراء ومذهب أبي حنيفة رضي الله عنه"⁴

3- دلالة الاختلاط والمشاركة:

تحققُ الممارسةُ الجنسيةُ للزوجين حالةً من التماهي الحاد حيث يلتقي الجسدان والروحان لقاءً حميمياً تذوبُ فيه كل الاختلافات بينهما، لذلك يقرُّ المتخصصون أن الجماع حلٌّ لكثيرٍ من المشكلات الزوجية لو أحسنَ فهمُ قيمته المعنوية والحسية، وما يجعلُ الحياةَ الزوجية لكثيرٍ من الأزواج لا تحسنُ الاستثمارَ في العلاقة الحميمة هو سوء الفهم لديهم تجاه هذه العلاقة المعقدة

¹ الزخشي، أساس البلاغة، مادة (فضو)

² الفيروزابادي، القاموس المحيط، مادة (فضا)

³ ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (فضي)

⁴ الرازي، تفسيره، ج: 5، ص: 122

المتعة؛ فيأتي على رأس فهمهم لها أنها مجرد موعد لإفراغ الشهوة الجنسية فقط، وهذا ما يجيدُ بتلك العلاقة من معانيها النفسية والجسدية المميزة إلى معنى مادي جاف لا أفق له.

إن الجنسَ يحقق للرجل والمرأة وحدةً نفسيةً وجسديةً لا تتحقق في آنٍ واحدٍ إلا في فراش الزوجية، وفي معنى التخالط والامتزاج تقولُ العرب: "الفَضَا: الشيءُ المُخْتَلِطُ"¹ و"متاعُهُمْ فَوْضَى فَضَاً أَي مُخْتَلِطٌ"² جاء في تفسير البحر المحيط: "وفي مثل الناس فوضى فوضى أي: مختلطون، يباشر بعضهم بعضاً"³

ومن دلالات الاختلاط دلالةُ الشراكة والاهتمام المشترك قال ابن سيده: "أمرُهُم فَوْضَا وفَوْضَاهُ مُخْتَلِطٌ عن اللّحيانيّ وقال معناه سَوَاءٌ بَيْنَهُمْ كما قال ذلك في فَضَاً وَمَتَاعُهُمْ فَوْضَى بَيْنَهُمْ إِذَا كَانُوا فِيهِ شُرَكَاءَ وَيُقَالُ أَيْضاً فَوْضَى فَضَاً قَالَ:

طَعَامُهُمْ فَوْضَى فَضَاً فِي رِحَالِهِمْ وَلَا يَحْسَبُونَ السُّوءَ إِلَّا تَنَادِيًا
وَشَرِكَةَ الْمَفَاوِضَةِ الشَّرِكَةُ الْعَامَّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَتَقَاوَضُوا الْحَدِيثَ أَخَذُوا
فِيهِ"⁴

وفي التهذيب: "شارك فلان فلاناً شركة مفاوضة، وهو أن يكون ما لهما جميعاً من كل شيء يملكانه بينهما.. وقال أبو زيد: القومُ فيضوضي فيما

1 الفيروزبادي، القاموس المحيط، مادة (فضا)

2 ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، مادة (فضو)

3 أبو حيان، تفسير البحر المحيط، ج: 3، ص: 202

4 ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، مادة (فضو)

بينهم: إذا كانوا مختلطين يلبسُ هذا ثوب هذا، ويأكل هذا طعامَ هذا، لا يؤامرُ واحدٌ منهم صاحبه فيما يفعل في أمره" ¹

ودلالة المشاركة التي تنبجس من ثنايا لفظ الإفضاء تسوقنا إلى مسألة غاية في الخطورة وهي أن يكون الجنسُ في المنظور الزوجي عملية تفاعلية، ومشاركة وجدانية بينهما، ومالم تحقق العملية الجنسية هذا المعنى الصميم فإنها تعتبر مجرد لقاء جسدي لا يؤتي ما يُرجى له من الثمر. وكثيراً ما تنشأ مشكلات جنسية خطيرة بين الزوجين لا يتداولان فيها ويناقشانها فتتفاقم إلى ما لا يحمد عقباه، فمعنى المشاركة هنا ضروريٌّ إن في أثناء العملية الحميمة، أو في مناقشة ما يعرض لها من مشكلات قال ابن فارس: "الفضاء مقصور: الشئان يكونان في وعاء مختلطين لا يُصرُّ كلُّ واحدٍ منهما على حدة" ²

4- دلالة الاتساع:

الإفضاء كفعلٍ جنسيٍّ هو عمليةٌ خروجٍ من فضاءٍ ضيقٍ لفضاءٍ واسع، وسميت ليلة دخول الرجل على امرأته بليلة فض البكارة التي يتم فيها أيضاً دخول المرأة لعالم الزواج الذي لن تكون بعده مثلما كانت قبلاً، جاء في البحر المحيط: "الإفضاء إلى الشيء: الوصول إلى فضاء منه، أي سعة غير محصورة. ... ويقال: فضاءً يفضو فضاءً إذا اتسع" ³ وتُصدّق ذلك من المعجم العربي؛

¹ الأزهرى، تهذيب اللغة، مادة (فضا)

² ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (فضي)

³ أبو حيان، تفسير البحر المحيط، ج: 3، ص: 202

جاء في المقاييس لابن فارس: "الفاء والضاد والحرف المعتل أصلٌ صحيح يدلُّ على انفساح في شيءٍ واتساع. من ذلك الفضاء: المكان الواسع."¹

ومن الدلالات التي أراها أساسيةً هاهنا، هو وجوبُ توفرِ فضاءٍ ملائمٍ يتسع لمطالبات العملية الجنسية بين الزوجين، فبدون مساحةٍ تستوعبُ عملية الجماع كاملةً لا يمكن أن تتحقق المتعةُ لهما، ولا يمكن أن نتحدث عن ثمار التواصل الحميمي التي تظلُّ الحياةَ الزوجيةَ فيما بعد، والواقعُ الاجتماعي يصدِّقُ ما نقوله هنا، فكم من أزواجٍ يعانون من ضيق مساكنتهم، وعدم سعة غرف نومهم تجدهم يشكون من أن اللقاء الجنسي عندهم منقوصٌ غيرٌ كامل، ويتحول هذا الموعدُ المميز للزوجين إلى حالةٍ إرباكٍ وقلق، تفضي بالجماع إلى مجرد قذفٍ سريع، وهذا يورثُ للزوجين كليهما توترًا نفسيًا لا يُنكر. ثم إن المختصين في تأمين السكن للمجتمع لا بد أن يراعوا أن من شرائط المسكن هو توفير الأمن النفسي للفرد، فإذا حرمتنا هذا الفرد من الفضاء الذي فيه يفضي لزوجته، أو قصرنا في حدود هذا الفضاء، فإن النتيجة لا محالة هي مواطنٌ غير مشبع، وغير آمن على نفسيته!!

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

¹ ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (فضي)